Journal of Alasmarya University
Volume 13, June 2010

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثالث عشر، يونيو 2010

الكفاية الاتصالية في السلوك الحركي والأعراف السلوكية

د. أبو بكر محمد سويسي*

إذا كانت الكفاية اللغوية هي أن يدرك المتكلم قواعد اللغة التي يتكلم بها فإن الكفاية الاتصالية تأتى لمعرفة كيف يقيم المتكلم اتصالا لغويا مع الآخرين يوائم فيه بين اللغة والمقصد وسياق الاتصال، فالمتلقي الذي تعوزه المعرفة باللغة العربية، تظل المسموعات والمنطوقات لديه معطلة عن وظيفتها، وعاجزة عن أداء دورها، وكذلك الحال مع المتكلم الذي يفتقر إلى قواعد وضوابط التراكيب ومناهج نظمها، فإنه سيظل غير قادر على إنشاء تواصل مع المتلقي مهما اعتمد على السياقات الأخرى غير اللغوية، وعلى هذا النحو تبدو الكفاية الاتصالية مراجعة ومصححة لكون مركز العناية في القدرة الاتصالية قائما على الكفاية اللغوية وسلامة بنيتها، واعتبارها رمزاً للقدرة الإبداعية لدى المتكلمين، فالإبداع هو « قدرة اللغة الإنسانية غير المحددة، ونعنى بها الطاقة أو القدرة التي تجعل أبناء اللغة الواحدة قادرين على إنتاج وفهم عدد كبير، بل عدد غير محدد من الجمل التي لم يسمعوها قط، ولم ينطق بها أحد من قبل ... إن تشومسكى يعول إلى حد كبير على القدرة الإبداعية أو القدرة غير المحددة للغة الإنسانية، ويرى أن النظرية النحوية لابد أن تعكس قدرة جميع المتكلمين بلغة ما على التحكم في إنتاج وفهم جمل لم يسمعوا بها قط من قبل»[1] وذلك وفقاً لنماذج القواعد النحوية المحددة وقواعد تركيب الجمل.

---

* الجامعة الأسمرية.

1- ليونز، جون، نظرية تشومسكى اللغوية، ترجمة وتعليق: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعة الإسكندرية ط1. 1985 ص 57.

وعلى هذا تكون المسألة في اعتبار القوة الإبداعية قائمة على البنية اللغوية في حين ترى الكفاية الاتصالية أن التفكير في مجموع القرائن الاتصالية هو ما يجب اعتباره مركز القوة الإبداعية في اللغة، « فالكفاية الاتصالية هي البديل المفهومي المنهجي للكفاية اللغوية في النظرية النحوية عند تشومسكى ومن نسج على منواله، بنى (ذيل هايمز) نظريته في الكفاية الاتصالية، على أساس ما لحظه من ضيق شديد في مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكى، لا ينبغي من وجهة نظر هايمز أن يقف هدف النظرية اللغوية عند وصف كفاية المتكلم المثالية ووصف معرفته بالصحة النحوية، وجد هايمز أن علم اللغة ينبغي له أن يُعنِّى نفسه بالكفاية الاتصالية والكفاية عنده تعنى مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة لأنماط المواقف الاتصالية المختلفة لا جمل نحوية »(2).

إن الاتصالية كفاية تكون علاقات بين أطراف الخطاب وفق ظروف لغوية ونفسية واجتماعية تتخذ من المواءمة بين الرموز اللغوية وسياقات الاتصال جوهراً لكل التعريفات التي ارتآها علماء اللغة الاتصاليون، وعليه تؤول الكفاية اللغوية لدى الاتصالية بأنها لا تعني سوى أن يتناسب الاختيار اللفظي مع المقصد والمقام، والحكم على حسن الصياغة وتنوع الأبنية ليس حكما ثابتاً مطلقا ولكن متغير تبعا لتغير الأنساق الاجتماعية والموقفية.

فالكفاية الاتصالية عملية اجتماعية، أساسها نظام من التوقعات الاحتمالية الساعية إلى تقييم الموقف الاتصالي بين المبدع/ المتكلم، والمتلقي/ المخاطب من خلال المواءمة بين الرموز اللغوية ودلالاتها وسياق الاتصال، ولتمكين هذه المواءمة لابد من وضع برنامج نظري لتحليل العناصر الاتصالية في سياقها الثقافي تحليلاً وظيفياً مرتبطاً بالسياق ومرتبطاً بالعملية الاتصالية القائمة على جملة من المكونات من نحو: المشاركون في الاتصال وصيغة الاتصال، والموقف الاتصالي، والحدث اللغوي، والموضوع ...

ثم إن المشاركين في عملية الاتصال يكتسبون معرفة بالنظام اللغوي المناسب، وإن كانوا غير واعين بالأسس والمبادئ والمعايير التي توجه أداءهم اللغوي الاجتماعي، فتتبع النظرية اللغوية الاجتماعية يكشف عن اعتمادها في زاوية على النسق اللغوي

2- العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة ط1، 2005 ص48.

النحوي، وفي زاوية أخرى على النسق الموقفي، فترتبط مكوناته -السياق الموقفي- بعوامل خارجة عن نطاق اللغة يفرضها السياق الموقفي ذاته.

إن الحقيقة الثابتة هي أن كل تركيب لفظي له مداره اللغوي ومحيطه النحوي، وله أيضاً مداره الموقفي الخاص به المعتمد فيه على جملة من الملابسات الذهنية والرغبات والأهداف والتوجهات والمقاصد، إضافة إلى المزايا والسمات التي تخص أولئك المشاركين في عملية التخاطب، وهي سمات تتعلق بأوضاعهم وأدوارهم في عملية إنتاج الخطاب، وهذا يعني وجود عوامل خارجة عن نطاق اللغة، سواء من جهة السياق وهو المحيط اللغوي للنص وما قيل قبله وما يقال بعده، أو من جهة الموقف وهو المحيط غير اللغوي للنص بما فيه من ظروف وملابسات تصاحب الحدث اللغوي.

إن الكفاية الاتصالية أوسع مدى من أن تقتصر على الكفاية اللغوية النحوية، ومن أبرز ما أخذ على الكفاية اللغوية عدم مراعاتها الوظيفة اللغوية الاتصالية، فهي حصرت نفسها في نطاق الجمل وتوليدها، وطوت كشحاً عن السياق[3]، وإن كثيرا من الدلالات لا تنجلي من خلال الاعتماد على البنية النحوية وحدها دون الرجوع إلى ملاءمات الموقف الكلامي باعتبارها أساساً في تشكيل إطار الاتصال؛ ذلك لكون الكفاية اللغوية ليس لها من المعايير سوى المعيار النحوي، وهو مكون واحد لا ثاني له، في حين أن الكفاية الاتصالية أشمل من أن تقتصر على المعيار النحوي بل تتعدى ذلك إلى كونها فعلاً لغويا يحمل توافقاً وارتباطاً بالمواقف والمكونات الاجتماعية والنفسية والموقفية، لذلك نلحظ تصادماً بين الكفايتين في بعض المتواليات التي تكون محققة ومحرزة للسلامة النحوية ومنحرفة أو فاشلة عن حدود وقواعد الخطاب المألوفة، ويظهر ذلك في متوالية السؤال والجواب، كقولك: كيف زيد؟ تجيب عنه: زيد معافى، فهذا صحيح لغة، غير مألوف استعمالا، فقواعد الاتصال تتعلق بما يسمى بالتوافق الخطابي، ولا يتأتى ذلك إلا بطول مران وممارسة، وخبرة بمتطلبات العمليات الاتصالية المتنوعة، « فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه ... وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجّه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر، بل وبغير فكر إلا بما استفاد من

3- ينظر سامسبون، جفرى، مدارس اللسانيات، ترجمة، محمد زياد. جامعة الملك سعود، الرياض، 1417 هـ ص160.

حصول هذه الملكة »[4].

وبعد هذا العرض الموجز لماهية الكفاية الاتصالية وعلاقتها بالكفاية اللغوية نتوقف عند ملامح هذه الكفاية في السلوك الحركي، أي الاتصال غير اللفظي.

1. أبعاد السلوك الحركي

إذا كان الاتصال اللفظي هو ذاك الاتصال الذي يستخدم الألفاظ وسيطاً لتحصيله باعتبارها قوالب لها دلالات اشتقاقية وتركيبية، فإن الاتصال غير اللفظي هو اللغة غير اللفظية، وهو الكلام من غير كلمات، إنه الإيماآت والحركات والأوضاع الجسمية المتباينة وكافة السلوكيات الحركية التي تصاحب المنطوقات على اختلاف قنواتها السمعية والبصرية والشميّة واللمسية أو الحركية.

لقد أطلق على الاتصال غير اللفظي تسميات عدة، منها «الاتصال الجسدي واللغة الجسدية، والكلام الجسدي والحركة الجسمية والسلوك الحركي، وعلم السلوك الحركي والعلامات الحركية ... واللغة الصامتة ونحوها »[5]، وفي محاولة لتحديد إطار الاتصال غير اللفظي لما به من اتساع وشمولية نرى أنه من الأقرب إلى الدقة أن نجعل الاتصال غير اللفظي تحت التعبير بالسلوك الحركي، وذلك لما للاتصال غير اللفظي من حركات وهيآت تتعلق بالسياق وترتبط به إذ السلوك يطال الحركة والهيئة.

ويأتي اعتبارنا لهذه السلوكيات الحركية لما لها من أصالة وعمق بين الأنظمة الاتصالية الأخرى. فربما كانت السلوكيات الحركية والإيماآت أسبق وجوداً في الواقع من الكلام[6].

من ناحية أخرى « فإن الحركات الجسمية والإيماءات المصاحبة للمنطوقات تعد عملا إضافياً يحفظ للمشاركين في الاتصال انشغالهم به، بل إنها تدعم أوضاع الكلام وحالاته، وتؤمن له نظامه، وتحفظ له إيجابياته »[7]. ولأجل ذلك يمكننا اعتبار السلوك الحركي ملمحاً مميزاً لسياق الكلام ذا أهمية قصوى لمعرفة تفاصيل المقام، في محاولة

4- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، د. ت، ج1، ص: 562.
5- العبد، محمد: العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال، دار الفكر العربي القاهرة 1986، ص: 114.
6- ينظر ماريو باي: أسس علم اللغة ترجمة: أحمد مختار عمر عالم الكتب، القاهر: ط2، 1983م، ص 39.
7- العبد، محمد: العبارة والإشارة ص 127.

للوصول إلى تفسيرات مناسبة وضرورية لتحصيل التفاعل في المشاركة المتكافئة لتحقيق نجاح أمثل للكفاية الاتصالية.

وبالرجوع إلى التراث العربي نلحظ، إضافة إلى وجوه استعمال اللغة من إيجاز وإطناب وتصريح وتلميح وتعريض، وغيرها من وجوه التعبير، إدراكهم عناصر اتصالية أخرى موقفية غير لفظية، تؤثر في الاتصال اللفظي بياناً وإبهاماً، ومن هذه العناصر ما يأتي:

رؤية المخاطب

تعد المخاطبة في الظلمة لوناً من ألوان معوقات الاتصال، نلمح ذلك من عدّ اللغويين واعتبارهم حصول الاتصال في الظلمة مهارة وميزة لا ينالها إلا المتكلم الحاذق. فقد روى أنه «لا تكون بليغا حتى تكلم أمتك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادى قومك»[8]، لأن الاتصال الأكمل يتوقف على رؤية المخاطب لما في الرؤية من استغناء عن كثير مما يحتاجه الاتصال، فالمتكلم يرى في المخاطب أثر كلامه، ويمكن لكل من طرفي الاتصال متابعة فاعلية الحركات والتعبيرات ودورها في توجيه مجرى الخطاب، ولهذا كله روى ابن جني عن أحد مشايخه أنه قال: «أنا لا أحسن أن أكلم إنساناً في الظلمة»[9].

مقامات الصوت

إن الخصائص الصوتية ومقامات الصوت وصفاتها ودرجاتها وأحوال مخارجها عناصر معتبرة في الاتصال غير اللفظي، من ذلك ما يروى أن الحجاج «كان إذا صعد المنبر تلفّع بمطرفه، تم تكلم رويدا لا يكاد يسمع ثم يزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد»[10].

وهذا ما يعرف بالتبدلات الصوتية التي تطابق الدلالات لا الملفوظات، فقد تتفق الملفوظات المسموعة دون تطابق الدلالة، نظراً للمؤثرات الصوتية التي تتآزر مع الحركة

8- المبرد، أبو العباس محمد: الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، د. ت. 246/1.

9- ابن جني، أبوالفتح عثمان: الخصائص تحقيق محمد على النجار. دار الكتاب العربي. بيروت: د. ت 247/1.

10- المبرد، أبوالعباس محمد: الكامل في اللغة والأدب 102/1-103.

السلوكية من إيماءات وانحناءات وميل إلى الأمام أو الخلف، وهذا مما يدخل في معنى التشخيصية التي لا تعني دراسة السلوك الحركي الجسدي فحسب «وإنما يُعنى كذلك بأثر التبدلات الصوتية أو ما يعرف بالمؤثرات الصوتية النوعية مثل: أنظمة الوقفات والتنغيم ونمط النبر ونغمة الصوت وشدة الصوت أو طبقته، والإيقاع، ودرجة سرعة الصوت، ونحو ذلك مما يؤثر تأثيراً قوياً في تحديد المعاني الوظيفية والمعجمية معاً»[11]، كل هذه الأنماط الحركية مع الطبقات والمؤثرات الصوتية محكومة بالموقف الدلالي، فتتحول كل هذه العناصر إلى أدوات تفسير وبيان وتقوي الكفاية الاتصالية، وتعمل على نقائها وحدتها، وتضعف من مستوى التعقيد اللغوي أو الدلالي الذي ينتاب العملية الاتصالية.

السكون، وعدم الحركة

تعمل عدم الحركة في الاتصال اللفظي على خلق آفاق من التواصل، إذ أشار النقاد القدامى إلى سلبية لون من السلوك الحركي الدال على العي، «وربما تشاغل العيي بفتل إصبعه، ومس لحيته، وغير ذلك من بدنه، وربما تنحنح؛ وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء في شعره:

ملـــيء ببهـــر والتفـــات وســـعلة ومسحة عثنون وفتل الأصابع»[12]

إذ التنحنح والالتفات والاشتغال بمثل هذا السلوك أمارة من أمارات العي عن مواصلة التخاطب.

ويروى أن أباشمر إذا خطب لم يحرك يديه ولا عينيه ولا رأسه، وكأن كلامه يخرج من صخرة؛ ويرمي صاحب الحركات التي لا دلالة لها بالعجز عن بلوغ المبتغى، فليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغير المنطق، إلى أن حاجّه إبراهيم بن سيار النظّام، فاضطر من أجل بيان حجته وإظهار مسألته، إلى حل حبوته وتحريك يديه[13].

11- العبد، محمد: اللغة المكتوبة واللغة المنظوقة، دار الفكر للدراساتت والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1990، 107.

12- المصدر نفسه 20/1.

13- ينظر الجاحظ، أبوعثمان عمرو: البيان والتبيين، دار الفكر للجميع 1968م. 66/1.

العرف والمألوف

إن العرف والعادة من العناصر الاتصالية غير اللغوية ذات التأثير في البنية اللغوية، من نحو الحذف والاستغناء عن بعض المنطوقات المألوف استعمالها عند المتكلمين لعلمهم بها طلباً للتخفيف، ويمثل اللغويون لهذا بقولهم: «وكان يقال لرؤبة: كيف أصبحت؟ فيقول: خير عافاك الله -بكسر الراء- فلم يحذف حرف الخفض، ولكنه حذف لكثرة الاستعمال»[14].

ويوجه ابن جني هذا الحذف في كلام رؤبة بدلالة الحال عليها وجري العادة والعرف بها[15]، ويعتبر من قبيل هذا العرف ما يرويه سيبويه أن أحدهم يقول: ألاتا؟ أي تجيء. فيقول الآخر: بلى فا، أي فأقبل ونحوه[16].

الحال والمقام

كان ابن جني يرى أن المحذوف إذا دلت عليه قرينة كان في حكم الملفوظ، ومثّل لهذا بقوله: «من ذلك أنك ترى رجلا قد سدّد سهْماً نحو الغرض ثم أرسله، فتسمع صوتاً، فتقول: القرطاس والله -بفتح السين- أي أصاب القرطاس، فأصاب في حكم الملفوظ به البتة وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال نابت مناب اللفظ به»[17]، فالمتكلم يدرك مكنة المخاطب من إتمام المحذوف بدلالة الحال، لكونها من العناصر الموقفية التي أدرك أثرها النقاد القدامى، فعدوها من الكفاية الاتصالية.

بالملاحظة من أمثلة التراث نرى أن السلوك الحركي تكمن فاعليته الاتصالية في اللغة المنطوقة بشكل أبين، فهذه الأحوال التي تطرأ على البنية اللغوية تمثل الإيجاز والاختصار والتبسيط، تبسيط في إنتاج المكون الصياغي اللفظي، فالاعتماد على علم المخاطب أو الفكر الضمني وغيره مما يميل إليه نقاد التراث يكون في اللغة المنطوقة أكثر شيوعاً وأقوى أثراً لكونها من خواصها وطبائعها الأولية.

وهذا التبسيط في إنتاج العناصر اللفظية على اختلاف وسائله وأشكاله المؤدية

14- المبرد، أبو العباس محمد: الكامل في اللغة والأدب 294/1

15- ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص 285/1.

16- المصدر نفسه: 247/1.

17- المصدر نفسه: 284/1. 285

إلى الاختزال والاختصار يؤكد دور الموقف والسلوك الحركي في الكفاية الاتصالية والعملية التبليغية، إذ يعمل الموقف على إتمام المحذوف، وفهم المختزل، فالمتكلم، حرصاً على الاقتصاد البنيوي، يلغي جملة من الأسس البنائية إلى أن يصل حد البتر، كما لاحظنا عند سيبويه، اعتماداً على يقينه بالمقدرة الاتصالية وارتفاع نسبتها عند المتلقي.

الإبقاء على إقامة التواصل

هذا عنصر يقتحم خط الاتصال بين المتكلم والسامع بانياً لبنة من لبنات الكفاية الاتصالية، إذ يتشكل هذا العنصر من منطوقات لا علاقة لها بسياق الكلام، وإن كانت تخدمه من خلال العمل على تثبيته وتوكيده ولفت انتباه السامع إلى ما يجب اعتباره لاحقا، وقد أدرك هذا العنصر علماء اللغة القدامى وأسموها ظاهرة الاستغاثة.

والاستغاثة أن يدخل في الكلام ما لا حاجة للمستمع إليه، ليتذكر ما ينبغي عليه فعله، كقولهم في أثناء الحديث: ألست تسمع؟ أفهمت قولي؟ وما أشبه ذلك.

وهذا ما عناه جاكبسون حين صنف كل الهيآت والعلاقات التي تسهم في تحقيق الاتصال ضمن إقامة الاتصال واستمراريته، سواء تلك التي تسعى لتثبيته أو لتوكيده أو لإطالته أو لإيقافه، أو إلى لفت انتباه المتحدث وعدم إهماله لما يجب اعتباره[18].

2. الأعراف السلوكية

لقد عُدَّ الخروج والإخلال بالمبادئ والأعراف السلوكية إحباطاً للكفاية الاتصالية التي لا تبنى على أساس مكونات المعرفة النحوية والقدرة على توليد الجمل اللغوية من القواعد النحوية بل تتعدى ذلك إلى أساس التمكن من خلق تفاعل اجتماعي يواءم فيه بين المنطوقات والموقف، هذا التوافق والتناسب المتشكل من جملة من قوانين الخطاب والأعراف تقف خلف سلوك اللغة.

ولنستبين هذه الأفكار والأعراف نعرض شواهد أخلّت بها ففقدت كفايتها الاتصالية، فجاءت هذه الأعراف والمعايير صريحة في نصوصهم بوجوب مراعاتها خوفاً من السقوط الاجتماعي والفشل الاتصالي، فحسن الشعر وقبوله محكوم بمدى « موافقته

18- بيار غيرو: السيمياء، ترجمة: أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات. بيروت 1984، ص 12.

للحال التي يعد معناه لها، كالمدح في حال المنافرة، وحضور من يكبت من الأعداء، ومن يسرّ به من الأولياء»[19]، ولما كان المدح محل اختيار الشواهد الإبداعية كان التوقف عند مطالع قصائد المدح التي لم يحترز فيها أصحابها مما يلامون عليه ويستجفون به؛ من ذلك قول إسحاق بن إبراهيم في مطلع قصيدة يمدح فيها المعتصم حين بنى قصراً دعا لافتتاحه وجهاء القوم وسراتهم، وألبسهم الديباج، ونقش سريره بالفسيفساء، ورصعه بالجواهر «وفي الإيوان أسّرة أبنوس عن يمينه وعن يساره ... فكلما دخل رجل رتّبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم»[20].

إذ من المؤكد أن لهذا المكان وخصائصه موضوعات بعينها ينبغي أن تطرح فيه، واعتبارات يجب أن تراعى من أجله، ولا يمكن لأخرى أن تخطر بالبال عوضا عن أن تذكر، غير أن إسحاق بن إبراهيم لم يراع ذلك، فقال:

يا دار غيرّك البلى فمحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك؟

فالمعتصم عندما يمتدح بمثل هذا البيت في مكان هذا وصفه، لن يكون منه إلا أن يتطير وإلا أن يتغامز الناس مما حصل، ويعجبوا من غياب الأمر على الشاعر بما له من طول ملازمة للملوك وسعة فهم لمقتضيات الأحوال. فكان أن قال بعض من شهد المجلس: فأقمنا يومنا هذا وانصرفنا فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس. وخرج المعتصم وخرّب القصر[21].

ومما كان مبعثا للتشاؤم قول أبي نواس أمام الفضل بن يحي البرمكي، حين قال:

أربع البلى إن الخشوع لبادى عليك وإني لم أخنك ودادي

فلما انتهى إلى قوله:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغادى

19- ابن طباطبا، أبوالحسن محمد: عيار الشعر، شرح وتعليق: عباس عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت ط1 1982، ص 22.

20- العسكري، أبوهلال الحسن: كتاب الصناعتين. تحقيق: على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية، بيروت 1986 م، ص 431 وما بعدها.

21- المصدر نفسه ص 422.

استحكم تطير الفضل وأيقن بدنو هلاكهم، وقيل: إنه لم يمض أسبوع حتى نكبوا ونزلت بهم النازلة[22].

إضافة إلى ظروف المكان وملابساته هناك حال المخاطب وما يحيط بها من اسم وكنية وأقارب وأخلاق وأوصاف، مما له صلة وتعلق وارتباط بالمخاطب، من هذا قول أرطأة بن سهيّة المري، وقد دخل على عبدالملك بن مروان وتجاوزت سنه المائة، فقال له عبدالملك: ما بقي من شعرك يابن سهيّه؟ فقال: والله ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، ولا يجيء الشعر إلا على مثل هذه الحال، وإني على ذلك للذي أقول:

رأيت المرء تأكله الليالي كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبغي المنية حين تأتى على نفس ابن آدم من مزيد
وأعلم أنها ستكر حتى تُوفِّي نذرها بأبي الوليد

وكان أرطأة يكنّى بأبي الوليد، «فقال له عبدالملك: ما تقول؟ ثكلتك أمك!، قال: أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين، فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك إلى أن مات»[23].

وإلى هذا أشاروا بقولهم: «فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح»[24] ومثله قول الأعشى الذي أنشده أحد الرواة أمام زياد بقوله:

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبى عليك فما تقول بدالها

فقال راوية البيت: «فقطب زياد، وعرفت ما وقعت فيه ... واسم أم زياد سمية فكره ذكر ذلك»[25].

ومثل ذلك مما يراعى في تحصيل الكفاءة الاتصالية تلك العلاقة التي تحكم

22- ينظر المصدر نفسه 431، وينظر عيار الشعر لابن طباطب 126-127.
23- المرزباني، أبوعبدالله محمد بن عمر: الموشح، تحقيق: على محمد البجاوى، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 304.
24- العسكري، أبوهلال الحسن: كتاب الصناعتين، ص 431.
25- المرزباني، أبوعبدالله محمد: الموشح، ص 304.

طرفي الاتصال، العلاقة التي تتشكل وتتألف من جملة من الاعتبارات والمحددات الاجتماعية والعرفية فتصبغ العلاقة بين المتكلم والمخاطب بصبغة معينة تتغير بتغير أحد الطرفين، واستشهد النقاد للإخلال بهذه العلاقة بقول جرير منشداً عبدالملك:

أتصحو بل فؤادك غير صاح عشية همّ قومك بالرواح

فقال عبدالملك: بل فؤادك يابن اللخناء[26].

ومنه قول البحتري يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري، حين قال:

لك الويل من ليل تطاول آخره ووشك نوى حيّ تزمّ أباعره

فقال أبوسعيد: الويل لك والحرب[27].

إن ما أعوز هذه المقطوعات الشعرية الفاقدة للكفاية الاتصالية أن أصحابها لم يفرقوا بين جماليات فعل النظم المحكوم بالمقدرة اللغوية وجماليات فعل تحول النظم إلى خطاب، الأمر الذي تكون فيه الكفاية الاتصالية مسئولة عنه، ومنوط بها تحصيله، فهم تعاملوا مع النصوص من خلال مناهج النظم البنيوي المجرد، لا من خلال وظيفتها الاجتماعية التي تبرز في المقدرة على خلق تفاعل يلائم بين النص والسياق، بما له من أحوال تتغير موقفياً، بحيث يتم تفسير اللغة في خانات أخرى غير لغوية، وفي ضوء حقائق واقعها الاستعمالي الذي تتكيف فيها المنطوقات مع الوظائف السياقية؛ وعليه تكون المقدرة الإبداعية في اللغة محكومة بأكثر من طرف: البنية اللغوية، وسياق الاتصال الواقعة فيه، والموقف الكلامي المحيط بها، فتتحول على هذا الاعتبار والتأويل علوم اللسانيات من عزلتها التي تعيشها حال كونها مجالاً للبحث لتصبح علماً محورياً للخطاب والاتصال[28].

26- المرزبانى، أبوعبدالله محمد: الموشح، ص 307.

27- ابن طباطبا، أبو الحسن محمد: عيار الشعر 127.

28- ينظر النص والخطاب والإجراء دى بوجراند، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1983، ص71.

مصادر ومراجع البحث

1. العربية:

1. الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975م.
2. ابن جني، أبوالفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
3. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، د. ت.
4. ابن طباطبا، أبوالحسن محمد أحمد: عيار الشعر، شرح وتعليق: عباس عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م.
5. العبد، محمد: النص والخطاب والاتصال. الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي القاهرة، ط1. 2005.
6. العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال، دار الفكر العربي القاهرة 1995 م.
7. اللغة المكتوبة واللغة المنظوفة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1990 مسيحي.
8. العسكري، أبوهلال الحسن: كتاب الصناعتين، تحقيق: على محمد البجاوى ومحمد أبى الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية: بيروت 1986 م.
9. المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، د. ت.
10. المرزبانى، أبوعبدالله محمد: الوشح، تحقيق: على محمد البجاوى، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

2. المترجمة:

11. دى بوجراند، روبرت: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب القاهرة: ط1، 1988 م.
12. بيار، غيرو: السيمياء، ترجمة: أنطوان أبى زيد. منشورات عويدات بيروت 1984م.
13. ماريو، باى: أسس علم اللغة. ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب القاهرة: ط2، 1983 م.

14. ليونز، جون: نظرية تشومسكى اللغوية، ترجمة: حلمي خليل. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ط1، 1985 م.
15. سامسبون، جفرى: مدارس اللسانيات، ترجمة: محمد زياد جامعة الملك سعود، الرياض 1417 هـ.